

ليلي المريضة في العراق

للدكتور زكي مبارك

- ٥ -

—>>><<<—

أخبار قصيرة

١ - اعترضت مجلة الحاصد على عبارة «ليلي المريضة بالعراق» وقالت : إن البيت المشهور يحملها مريضة في العراق لا بالعراق ، وتسلنا عن معاني الباء ، ولكننا نعرف أن الجدل في النحو أخرج سيوبه من بغداد وهو محموم ، فلنصرح بأن الباء في العنوان القديم لم يكن لها في ذهننا معنى غير الظرفية ، على حد ما قيل

ليس لي يا بني أعداء . كل مالي يا بني خلائق

فاضطرب الكتابي المسكين والشك يأكل قلبه ، وصاح :
لكن آراء دارون وباه تخالف أقوال كتابك
فأكد له الله قوله في حلم وحزم : « كل ما أخلص كاتبوه
في كتابته فهو وحى من عندي ، وكل ما استقام على الصراط فهو
من مصدر الاستقامة »

وفي بعض المحادثات يقول ماركس ليجيتي : إن من يعمل بعيش .
فيقول جيتي : إنك إن أقت حق العامل على عمله لا على صنفته
الإنسانية قتله ، ولا سيما حين تكثر الآلات وتقل الحاجة إلى
الأعمال والعاملين

وهكذا تفيض الرسالة بالطرائف التي لها مثل هذه الطلاوة
أو هذه الدقة أو هذه الفكاهة . وقد رأيت أن أشرك قراء العربية
في نصيب منها حتى ينقلها ناقل برمتها وهي قلما تربي على مائة
صفحة صغيرة

عباس محمود العقاد

حاشية : للأستاذ أدب عباسي جواب مني على مناقشته التي عقب بها على
بعض مقالاتي السابقة . وربما أضفت إلى هذا الجواب بيان ما سأله عنه
الأستاذ عبد الحميد البدي وطلب المزيد من شرحه ، وأقول لحضرتي إن اسم
الكتاب الذي سأله عنه بالإنجليزية هو Nations can live at Home
وراسم مؤلفه Dr Willcox

ومن يك أمسى بالمدينة رحله فاني وقيار بها لفريب
فأتركنا ياسيد أنور ما تركناك !

٢ - نشرت جريدة البلاد كلمة لحضرة سكوثير الاذاعة
اللاسلكية ينفي بها ما نشر في مجلة الرسالة عن إغفال أسطوانة
السيدة فادرة :

يقولون ليلي في العراق مريضة فياليتني كنت الطبيب المداوبا
ويؤكد أنه لم تصدر أية إشارة من أية جهة بمنع هذه
الأسطوانة من الاذاعة ، ونجيب بأننا سمعنا ذلك الكلام من ليلي
وهي عندها صدق

٣ - كثر الاستفهام عن السيد الذي يقيم بالكاظمية والذي
تفضل فهداني إلى منزل ليلي ، ولكن لذلك السيد مكانة اجتماعية
تجعل من العسير أن نصرح باسمه في هذه الأحاديث الوجدانية
٤ - طلب جماعة من أدباء بغداد أن أعلن أن ليلاي غير
ليلي الزهاوي ، فان الزهاوي كانت ليلاه هي العراق ، وأنا أصرح
بأن ليلاي في بغداد هي ليلي المريضة في العراق ، وهي معروفة
لجميع الناطقين بالضاد

وبدت لي ظمياء فتاة شاعرة المواطف حين وصفت آذار
بأنه شهر الأزهار والرياحين . وغلب الأدب على الطب فأجبت
أن أعرف كيف رأيت مصر وكيف رأيت النيل . والحق أن ظمياء
في جوهرها فتاة مليحة ، ولكنني أغالب نفسي فأقول إنها شوهاء
مدارة للمرأة جميلة التي تفحص أسارير وجهي بعينين كأنهما
عينتا المُتقَاب ، وما أدري والله كيف نجحت في اصطناع التجميل
والتوقر وكنت طول حياتي مفضوح النظرات

- ظمياء

- نعم يا مولاي

- كيف كان طريفكما إلى مصر يا بنيتي ؟ بالسيارة أم

بالطيارة ؟

- لم يكن السفر بالطيارة مألوفاً في سنة ١٩٢٦ وإنما ذهبنا
بالسيارة إلى الشام ، ثم اخترقنا فلسطين حتى وصلنا إلى قناة
السويس ، وقد قضينا على شاطئ القناة ثلاث ساعات مرت كلحة
الطرف بفضل ما عرقتنا فيه من التأملات

- وهل التأمل يقصر الوقت يا ظمياء ؟
 — لا أعرف يا سيدي الطيب ، وإنما أذكر أن ليلي كانت
 تحفظ قصيدة شوق في قناة السويس فظلت تنشد طول الوقت
 وهي في حلاوة الرشا النشوان
 — لا أعرف أن لشوق قصيدة في قناة السويس ، وإنما
 أعرف أن له فيها آية من آيات النثر الفنى
 — لا . يا سيدي ، هي قصيدة
 — هل تحفظين منها شيئاً ؟
 — أحفظ المطلع :
 تلك يا ابنتي القناه لقومكيا فيها حياه
 — هذه ليست قصيدة يا ظمياء
 — ليلي تقول إنها قصيدة
 — القول ما قالت ليلي ! ثم ما ذا يا ظمياء ؟
 — كانت ليلي تنشد ما تنشد ثم تحاورني في أمر المصريين
 الذين حفروا القناة ، ومن رأى ليلي أن حفر القناة أعظم عمل
 قام به المصريون في التاريخ
 — ولكنها أضرت مصر يا ظمياء
 — هذا يا سيدي كلام الساسة لا كلام الأطباء . وهل
 يضر مصر أن تكون صاحبة الفضل على العالمين فتنشىء من
 المرافق ما يخلت به الطبيعة القاسية على الانسانية ؟ إن الحياة
 يا سيدي الطيب لا تنهض إلا بفضل التضحية ، وقد نحت مصر
 بعالمها وسلامتها في سبيل الانسانية ، وسيجزئها الله على ذلك
 خير الجزاء
 — هذه فلسفة يا ظمياء ، وما تعنى الآن ، ثم ماذا ؟
 — ثم دخل الليل ونحن على الشاطئ ، وطلع القمر فتحول
 للوجود إلى موجة فضية تفتن القلوب ، ونظرت إلى ليلي فرأيت
 انعكاسات القمر على وجهها آية من آيات السحر والفنون
 — دخلنا في الغزل يا ظمياء
 — أنت الذي شجعتني على الوصف يا مولاي
 — اسمي ، هنا سؤال مهم : هل رأيت ليلي على القناة في
 حال تختلف عما كنت تعهدين وهي في بغداد ؟
 — أنا أصغر من ليلي سنًا كما تعرف
- مفهوم ، مفهوم ، وهل نخني على مثل هذه الفروق !
 — لم أكن أعرف يومئذ ما هو الحب ، لولا علاقة سطحية
 بين عمي عبد المجيد
 — يظهر أنك فتاة متعبة وحقا . ماشأني بملاقاتك السطحية
 أو العميقة مع ابن عمك عبد المجيد ؟
 — أنا أريد يا سيدي أن أقول إنى لم أكن يومئذ أدرك
 كيف تنغير أسارير الفتاة حين يطلع القمر ، أو حين يهب النسيم ،
 وإنما فطنت إلى ذلك بعد ما نارت العواصف حول ليلي . وأقول
 لك إنى فهمت الآن أن ليلي كانت تتأهب لحب مجهول ، فقد كان
 للقمر على وجهها أضواء وظلال بطير لها لب الحكيم ، وقد
 مدت ذراعي فطوقتها فانعطفت على قبلي قبة عطف لن
 أنساها ما حيت !
 « وهنا تذكرت الوجه الذى كان القمر يسبح عليه ألوان
 الأضواء والظلال ، وجه الانسانة النبيلة التى أتحفتنى بصورتها
 النالية لأدفع بها ظلام الليل فى بغداد . وكدت أنهد ثم تماسكت
 ولى قدرة على ضبط النفس فى بعض الأحوال »
 — كفى ، كفى
 — تحب يا سيدي أن أصف كيف رأينا القاهرة أول مرة ؟
 — إن كنت تحبين ذلك ...
 — أحب أن أقول لتسمع الست جميلة ، فهى تحب ذلك
 — وأنا أيضاً أحب أن أسمع وصف القاهرة ، فقد طال
 شوقى إلى القاهرة
 — تعرف يا سيدي محطة باب الحديد ؟
 — أراها يا بنيتى فى طيف الخيال !
 — لقد أرهقنا الخيالون ...
 — أنت يا ظمياء تتكلمين بلغة السامعين . إن لمحطة باب
 الحديد سحراً لا تعرفينه يا حقا .
 « ثم سكت لحظة ، فقد تذكرت أنى زرت تلك المحطة
 أكثر من مئة مرة على غير ميعاد ، لأشهد أسراب المودعين
 والمودعات فى القطار الذى يقوم إلى بورسعيد كل مساء .
 وتذكرت أنى كنت أضحي بكأني فى قطار البحر فلا أصعد إليه
 إلا بعد أن يدق الناقوس لأمتع عيني وقلبي بالحسن الذى يموج

المطف . فسكنت ليلى قليلاً ، ثم لبست المطف فوق الفستان ، ونظر في المرآة فرأت أن حالها مقبول ، ولم تر بأساً من الخروج بهذه الصورة لرؤية المرض

— ثم ماذا ؟

— وخرجنا فعبرنا جسر قصر النيل

— هو اليوم جسر اسماعيل

— أفأذك الله !

— يا مضروبة ، هل تخرجت في الأزهر الشريف !

— دخلنا المرض ، أو دخلت أنا ثم تبعتي ليلى ، سد

كانت على غاية من الهيب والاستحياء ، ثم رأينا أفواجاً من الشبان قيل إنهم طلبة الجامعة المصرية وعلى رأسهم أستاذ يشبه سيدى الطيب

« وهنا ابتسمت ابتسامة خفيفة لأنه لا يعد أن أكون ذلك الأستاذ ، فقد كنت صحبت جماعة من تلاميذى لزيارة المرض ، فيهم ابراهيم رشيد و ابراهيم نصحي ومحمود سعد الدين الشريف ومحمود محمد محمود ومحمد عبد الهادي شميره ومصطفى زيور وعزيز عبد السلام فهمى ومحمد حمدى البكرى وعبد الحميد مندور ومحمود الخضيرى ، ويسرنى أن أقول إنهم أصبحوا اليوم رجالاً يتشرفون بخدمة الوطن الغالى . ثم شمرت بحمرة لاذعة حين تذكرت أنه كان يمكن الفرار من أولئك الطلبة الشياطين لرؤية من فى المرض ، ولعلنى كنت أعتبر بليلى فأصبح من أقطاب الشعراء ، ولكن ما فات فات فاقتل نفسك إن شئت يا صريح الملاح »

— ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم طوفنا بالمروضات فلم يرقنا غير مروضات سليم عبده

— مات ، رحمه الله

— يا عيني ، لقد كان رجلاً لطيفاً ، ومن عنده اشترينا

أشياء كثيرة ، وقدم إلينا هدايا لا تزال تحتفظ بها إلى اليوم

— ثم ماذا ؟

— ثم ركبنا القطار ، قطار المرض ، وكان أمامنا شاب

يسارقنا النظر بعينين خضراوين ، فتكلفت الشجاعة وهممت

بزجره ، ولكن ليلى ضغطت على يدي فاعتصمت بالصمغ الجميل

زكى مبارك

« للمحدث بقية »

فوق الرصيف . وتذكرت الفتاة التي استقبلتها في تلك المحطة عند منتصف الليل في الشتاء اللامنى ، تلك الفتاة التي جاءت من نورمنديا خاصة لتزور مى الأهرام في ليلة قراء . تذكرت وتذكرت حتى كاد يفضحنى السمع ، والله الأمر من قبل ومن بعد ، وهو وحده يعلم ما يقاسى قلبى من الغربة بين القلوب

— ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم اخترقنا شارع كامل

— هو اليوم شارع ابراهيم

— أفأذك الله !

— يا لثيمة ، فيك أشياء من دعاية بنداد !

— ثم زلنا عند أسرة عراقية تقيم في شارع قصر النيل ،

وكانت ليلى قد تبعت فظلت في البيت يومين كاملين

— وهل فى الدنيا انسان يرى القاهرة أول مرة ثم يجلس

نفسه فى البيت يومين ؟

— قلت إن ليلى كانت تبعت ، والحق أن ربة البيت الذى

زلنا فيه نهتتا عن الخروج ، لأننا زلنا القاهرة ملفوفتين بالثياب

على نحو ما ترى عقائل بنداد ، وكانت تلك السيدة نحشى إن

خرجنا بتلك الصورة أن يرانا الجمهور من الغرباء ، والغريب لا يسلم

من فضول الناس . وفى يومين اثنين أحضرت تلك السيدة

الكرمجة ما ترى أن تلبس من الثياب . أما أنا ففرحت بشبابى

ورأيت أنى تجددت ، وأما ليلى فقد غضبت أشد الغضب وأعلنت

أن الخروج بهذه الثياب يتناقى الحياء . وفى الحق أن ليلى بدت

فى تلك الثياب كالطورية الهاربة من الفردوس ، فقد كان يجب

أن تمشى فى الجادة^(١) وهى سافرة الوجه ، وكان الثوب المصرى

يكشف بعض الطلائع من صدرها الجميل . ولو رأيت ليلى فى

تلك الساعة وهى غاضبة لرأيت العجب العجيب ، فقد توهمت

الجنونة أن الشبان المصريين سيخطفونها حين تقع أبصارهم على

حسنها الرموق ، وبلغ بها الوهم أن تزعم أن خطفها سيكون

فضيحة للعراق

وعندئذ فهقمت ربة البيت وقالت : « اسمي يا ليلى ، إن

المصريات لا يخرجن إلى الشارع بهذا الثوب وإنما يلبسن فوقه